الجرذان .. والرواية المعاصرة

بقلم محيي الدين محمّد

تبدأ حياة الانسان منذ لحظة وعيه ، ثم لا تنتهي أبداً الا بالنسبة لوعي الآخرين . فالموت ، ذلك القانون الذي غزا الصحراء ، وبابل ، وقارةً في بطن الاطلنتيك ، ومحا تواريخ عديدة ، وحضارات قامت على ضفاف النيل والفرات ، وثقافات تأطرت أمام الكوارث واتخذت لها أشكالا ميتة .. ذلك الموت يُهزم امام وعي الفرد ، ويقف قريباً وبعيداً ، كأنه السحر ...

وما زال الجند يدفعون في خطوط النار ، وكلهم يمسكهم حنين للعودة ، أشدّ أسراً من أعتى منطق ، ولا يخلصون من مثل ذلك الحنين الا بقانون واحد : فقد آمن كل جنديّ بأنه هو الفريد الذي يعود سالماً للوطن ... ما ابعد الموت ! حتى وهو في صميمه ..

لم نعش تجربة ما ، امام الموت ،فهي مرة واحدة واخيرة ، ولكنها مؤجّلة باستمرار .. فما دمنا نقتنص اللحظة ، فهناك متسع امام امل جديد ، وحنين جديد .

ان الفناء يحضر العالم من داخل العالم نفسه ، وليس من أذرع تمتد كي تحمل الرجاء .. فما من رجاء !

الوعي الناضج المتأمل ، يلاحظ الطابع الحياديّ للعالم ازاء آلامنا وعذاباتنا ، فهو يقف في جهة مستمّراً .. ذلك « المافيستوفول » يلاحظ « فاوست » المسكين ، وقد أغمي عليه من الرعب ، وتمتد يد كريهة تشد اليها أباً من هنا ، ورفيقاً من هناك .. مخلفة باستمرار من يعي موتهم .. ! اولئك هم الغرقى .. ليس من يموت .. بل الذي يبقى .. ويلاحظ موت الآخرين ، فما عاد بالنسبة للموتى ألم او ذكرى او حنين ..

صراع غير متكافىء ، ولا تجدى حتى طريقة « ڤابيوس » لوقف ذلك الغزو ..

أهو خارج على الحياة ؟ ابداً ! إنه من صميم الحياة ضمن أحشاء تتلوى بوحيق لايؤلف الا محض الحياة . أليس الظلام محمولاً على نفس الكتف التي تحمل النور ؟ ولم تعطنا الحياة الا هذه العظة ، تدبّرهاقسس أوضيون ، وعاشها فلاسفة أحرقت الحروف السود ماء اعينهم .

البشر أقوى من قانون الحياة وإذا لم يُنحّ النبل ، فهم أنبل كذلك !! ان الحياة تمنحنا وعياً خاماً يصبح رائعاً وضرورياً خلال صراعاتنا كبشر في قلب العالم . وهي لا تفتأ تسترده ، كلما اربى على الستين والسبعين ، تسترده في صورة موت ، في حين وسمها هذا الوعي النبيل صفة اصبحت لفرط شمولها غير لائقة : ان الحياة كاملة ، وزمانها خالد .. ! على أننا قد أُعطينا زماناً ضئيلاً ، ليس إلا دورات حول ذلك الجرم الملتهب ، ثم خاتمة من عندنا يؤلفها دود قميء اصفر .

خلة ما ، رائعة تؤلف عنصراً هاماً يجمعنا كبشر ، فنحن قد رُكبنا فيما يبدو من النسيان ، ولا يصبح الحزن بعد ساعات إلا ذكرى .. ها هو الالم القاتل الذي دفع (سبارتاكوس) لتحرير امة ، يقعس به مباشرة ، وفي لحظة ، عن تحرير نفسه .. لقد قُدّ بأكمله من حليف يوشك ان يعود به حيواناً .!! على انه النعيم الواحد الذي يسرّ به .. اننا نعلم كما يعلم « الجيرانيوم » عن أيامه المعدودة ، والذي سيطفيء لهيبها ذلك المدّ الطافح من بحر الموت .. ثم نصرّ بالحياة ، ونتذوق الخمور : كنتكي ١٨٨٥ ، بوردو ١٨٣٠ ونطلق اكاذيب رائعة ومكشوفة ... ونغش في النرد ، ونصادق فتيات جديدات ، مظاهرات عجيبة لاياد وعيون تود ان تعيش للأبد وتفكر فيه .

ويمضي البشر يمارسون العابهم ، ولا يكفي ان يختار الانسان الساعة الملائمة ، فهم فيها كل وقت ، كأنهم قد كلفوا بان يذكّروا بعضهم بالنسيان .. !

شيء ما يأخذ في نهش هذا المسطح الساكن واللزج : يقرضه ، فيما نحاول الامتلاء منه ، دقيق ، ولكنه صميمي من قلب هذا الكون .. غشاء ظاهري لفكرة عميقة ، رمز ونداء .. لآلهة شدها العذاب .!! تكوين رقيق ، ولكنه يملك ان يقلب كل حركة جموداً .. ان يريق ماءالعين ويمتصها

متشفياً حتى الهلام .

شيء ما ، هو بين نتن الجيفة ، وزخم الاحياء ...

« كنت استطيع ان اسمع طيلة الوقت ، الجرذان وهي تنهش جثمان الوالد . وفي النهاية استبدت بي العصبية حتى أوقفته منتصباً في الركن كأنه ساعة بندولية ولكن سرعان ما شرعت الجرذان في نهش قدميه ، وساقيه .. ولم اطق لذلك صبراً .. وكدت ان يغشى علي من الرعب ، فهرعت فراراً ... »[1]

لمن يكن قرص الشمس ، أو الكف التي تمنح ، او الصليب ، الا رموزاً تصوّب هياكلها للسماء .. تطلب الخصب ، او تستنزل الغضب .. وكان ثمة ما هو اكبر من الطقوس ، واعتى من قدرات الرمز والادعية .. يستمع صامتاً ، لكل هذا النحيب ، وتلك الدعاءات ... ولم يكن ليستجيب .. فثمة قانون لكل بشيء ... وقد رُسمت حتى لحبات العنب ، وديدان الارض اقدارها ...

على ان الجرد يصبح رمزاً حديثاً لفكرة الموت التابع من الحياة . ذلك الخبيث الناري .. الكاحت باستمرار لهذه الجدران المؤلفة لعالمنا ، والذي يهشمه ، ويحوله اطلالاً .. ذلك العابد المتطرف للقذارة ، والجيف والنتن ..

وكما يمثل ذلك البطين البوذيّ ، ذو الانف الرائع ، والذي يقبع في سهوب الصين والهند ، إلهاً يسكن تلك السموات الزرقاء ، استطاع ذلك الجرذ الشائن ، والمعلم للبشر ، ان يحتضن فكرة الموت وان ينذر بها .. اخيراً .. هذا هو الغضب الحق . ان نصبح فجأة قادرين على الذكرى ..

« غير ان خوفي لم يكن من الكوليرا بمفردها ، بل كنت ارتعد من البدء للنهاية من الجرذان . فقد كانت تبدو كأنها في دارها ..»[2] على اننا لا نقنع بمثل هذا النذير ، فقد نرتعد احياناً من الغضب بتأثير حادث ما ، ثم نفيق على النحيب ، نحيبنا .

حياة من الذي يمزقها حزن لارواء له . ؟! انها حياتنا .. اننا احياء .. الآن ، احياء ، نعي ، ونشم وندرك .. لقد بغتته الذكرى ! حتى الحزن لا يستطيع ان يشد اليه عبيداً الى الابد !

الحزن ، والالم ، والموت .. الفرح ، والنشوة ، والحياة ! من عناصر متقابلة يتألف حسنا الذاتي .. وما كانت حلاوة سعادة لتجذبنا ، لو لم نذق سغب الالم .. وقد تعلق بصر طبيب بجرح غلام يموت .. فماذا وجد في العمق منه ؟!

« لقد ابصرت ديداناً في حجم الخنصر ، مخضبة بالدماء تتلوى اجسامها وترفع رؤوسها الصغيرة البيضاء ، وتختلج سيقانها الدقيقة التي لا حصر لها في قاع الجرح ..»[1]

.. رمز آخر .. حُمل من ضباب الضربات العفوية ، الى رسوخ الاشارة السديدة ... الدود .. صليب جديد يعنى ويؤكد نفس المشكلة البشرية ... ولحم الفتى المسكين يُنهش في سكون ؛ والجرح يعمق ! وطوفان من مناشير دقيقة تحك الاعصاب واوعية الدم والنسيج الحي المؤلف لكل ذلك الشكل الانساني ، والمحكوم عليه بالموت .. ، ولا يمد الطبيب ، ولا يفكر بان يمد يمناه لينتزع تلك الرموز البيض .. فقد اعملت افواهها ، ووقف البشر : العلم والخرافة عاجزاً امام هذا الصنم الضئيل الذي يعمل بدون فكر ومع ذلك بارادة كاملة .

وحتماً تخلق ديدان أخر ، تكمل المأساة ، ديدان لاحصر لها ، يتألف منها الجرح الذي يفتك بالمسكين . وكما يفر ذكاء الانسان امام اتفه ظاهرة طبيعية ، كمطر ، أو زلزال ، او مدّ عال ، يسرج الطبيب جواديه ، ويهرب في الثلوج ، كما هرب الطبيب الآخر من الكوليرا في صيدلية « سان جنارو »

الم يعثرا على ذرّة التقابل الاخرى ، التي تؤلف عنصر الموت ؟ وامام الكارثة لا يستطيع حتى الدين ان يمنح عزاءه . !

« — ألا تنقذني ؟! »[2] .. صيحة البشر امام عنف الضربات ولكم تسع الصدور . ! وهذه اشد المعارك وحشية .. فقد كان يعطى للعبد الروماني خنجر صغير ، يقف به امام فهود لا يجندلها حتى الف سهم ، وكان محكوماً عليه بالموت ، فأن يموت باقل امل ، هو اشد ارضاء لارادة البشر من ان يقف اعزل مجرداً ، وبلا امل ، امام ما هو اقل إضناء من الموت .

. ولكم يطلب البشر الانقاذ!

---

١ فصل (الكوليرا في نابولي) من كتاب (احدوثة سان ميكيل) لاكسيل مونتيه.

٢ احدوثة سان ميكيل .

١ (طبيب القرية) فرانز كافكا .

٢ كانت هذه صيحة الغلام ، ودعاءه للطبيب في قصة كافكا. (طبيب القرية)

« اينبغي ان اقنع بمثل هذا الاعتذار . ؟ إني مرغـم للاسف على الرضى به ، بل لا مفر لي من الرضى في جميع الاحوال . فلقد اتيت الى هذا العالم لا املك غير هـذا الجرح الجسيم .. ولم اجلب للعالم شيئاً سواه .. » [1]

الم عميق ووحيد .. يستطيع نزع هذا الاعتراف .. ! ايدلي الخاطيء بكل اوزاره امام المذبح ؟ . وماذا يبقـى لذاته .؟! وما الذي يبقيه ما هو .. إذا منـح كل نفسه للآخرين .؟!

وكذلك .. فليس .. إلا حزن واحد يستطيع ان يبرز للسطح كل الكنوز الغارقة والدفينة منذ لمسات الوعي الاولى. إنها احزان جراحاتنا كبشر ، امام لامنطقيـة الحياة ..

مكنة واحدة ، استطاعت في تاريخ البشر ا ن تصارع بأمل .. وقفت امام الطغيان الاقل ، لتمنحه تصـوراً اعنف واشد دموية . ، ولكنها صمدت تاركة اثراً غير ذي خطر ، ولكنه مرضي عنه ... انها رغبة ذلك الـفارس الاسباني النبيل « الدون كيشوت » . ولم يلبث حتى وجد معنى للشر ، فقابله بابتهاج ، وبلا يأس ، ولم يقم حـول دعوته اسواراً : فاما هو .. واما هم ؛ ولقد مات شريفاً .!

كان بعض الجند البواسل [2] ، الذين قدموا من مقاطعات (الروهر) وعلى طول (الراين) والغابة السوداء، يلقون مصيراً بشعاً فيما يناضلون من اجل ارضهم ضد تدخلات أجنبية غاصبة . فقد قامت ، من بطن ارضهم ، من ارض الذكريات ، والصلابة ، جرذان من حجم مهول ، تخترق الخنادق كالشهب ، وتلتهم اللحم الذي ما زالت تئن فيه الروح ، مكتنزة ، سمينة ، غير مبالية ... وكان ثمة الجرحى ! آه .. ها هي دغدغات مؤلمـة تمر كما يمر طرف السكين على العنق ، باعضائهم ، فيما يحدقون في زرقة السماء .. يحـاولون الفهم ! وكانت الجرذان تنهش الاذرع والارجل ، والاحشاء فيما يحدق فيها اصحابها !

هي هنا الخيانة ! لقد امتصوا .. وما عاد هنـاك امل .. أيمسكون بأعواد قش ؟ وكانت تطارد بدون فائدة .. فهي في كل شيء : في علب الطعـام ، وفي الخوذ وفي النفس وفي حراب العدو .. عند اي منعطف ، وفي اكمام شجرة تفاح ومن قلب اي طلل ..

انه يظهر عقب كل مأساة بشرية .. في الحروب ، والاوبئة والفيضانات .. وهو ليس حظـاً يضرب هنا ، ثم لا يضرب هناك .. ففي تلك الايام التي كانوا يحسبون فيها تقدم البندقية مظهراً لنهاية البشر كان الاحساس ضئيلاً بالكارثة ، بل كان احساساً تاريخياً اكثر منه مُعاشاً .. ، ولم يُلتفت - من قلب عزلتهم - الى تلك الجراحات .. فلم تكن المـأساة قد غزت بعد كل البشر .. اذ كانت فكرة الخلاص الدينية تؤلف مصير فريق ، وتحرق مصير الفريق الآخر ..

اما الجرذان ، فقد ظهرت في (بومبي) بكل قسوتها ، بعد الطوفان المهلـك للصخور ، واللافا من الثقب الجهنمي لفيزوف .. وقد بدت اثر كل خطوة تقدمتها جحافل (أتيلا) و(جنكيز خان)، وطفت مع ميـاه (الكنج) و(بو)... وصخور (فوزي ياما)..هي..هي لم يتخلف عنها واحد .. فهي مدعوة من كل شق وجحر ومن كل امتداد لأنبوبة مجاري ، لتحيل ارض الجمال هذه خراباً وركاماً ..

وليس الصراع اخيراً بين الجرذ والانسان ، فمتى كان الجرذ نداً لهذا المخ الرائع بكل فولاذه، ومصانعه واسلحته؟

اما الامل .. فقد دفن ، ولم تبق الا ارادة الصراع .. وقد نُسي ذلك الشيخ الجليل الذي شال يوماً سيفه الرائع ، ووقف بدرع اجداده يدافع عن كياننا وكيانه ، ونُسيت رغبته في ان يظل الشرف يحكم لا المنفعة، وقد كاد ان ينجح في توصيل رغبته للاجيال من بعده .. ولكن الطمع يؤلف انسجة البطن والدماغ .. اذ نسي البشر مغزى المـأساة.. فاكتنزوا الذهب . بلا ضمائر، ثم ماتوا كالخراف..ولم يكن كل مساء بالنسبة لهم ، الا فـترة للتفكير في نصب احبولة جديدة .. في حين كان كل مساء بالنسبة لكونفوشيوس .. هو آخر مساء ..

وفي مبدأ الامر كان البشر يستجيبون لرغبة الفضول ، فيتساءلون ، ويعجبون ، ويشتمون ! فهـا هو عدو لبيب يحصرهم في واد املس ، ولا يملكون حجراً للدفـاع .. وقد يكفي غموض هذا العدو ، لحملهم على الاستسلام ، ومع ذلك فقد رفضوا ان يقتلوا في نفوسهم كل إرادة وكل حس..ولقد علمنا هذا العدو بعض المزايا ، فقد علمنا الا نقيم وزناً للامل او البهجة ..

---

١ نفس المصدر

٢ (كل شيء هادىء في الميدان الغربي) ماريار يمارك.

وهو ليس كياناً تستطاع مغالبته ، او الفرار منه ، وهو ليس الا وعاء مُنح حق هزمنا ، واعطيت له اسهم مسمومة ، وحراب ثقيلة ، ثم اشير له نحونا . وهو يتسلل .. غير انه مكشوف ، وكأنه غير جدي .. بعيد ، وقريب ..

وكما مُنحت لنا نتيجة الصراع ، مُنحنا ارادة الصراع .. وهذا الود الذي نقابل به مأساتنـــا ، ليس الا نتيجة حسّ فائق بعدم جدوى النواح . فبعد ان كانت الشعور تقطع ، وتمزق الجيوب ، وتلطخ الوجوه بالطين والتراب ، اصبحنـــا نضع زهرات الياسمين ، ونوّار البرتقال على جثث موتانا ..

فقد قبلنا ان نعيش ، وكان من نتيجة هذا ان سكنت الحضارة عالمنا بشكل ذي مغزى ، وكانت الثقافات الدينية هي الغالبة ، ايام حروب الجياد ، والنوق ، اذ كانت حاجة البشر للاطمئنان أشد من حاجتهم للعيش الطيب . وقـد ساهمت «يوتوبيا» ما بعد الموت في شد هذا الوتر ..

واذ عرّفنا الثقافة المعاصرة بانها اتجاه لقتل روح القطيع ، وانماء الوعي الفردي ، ندرك لمـــاذا لم ينبثق روح العلم من ارض الكهانات !

وقد ظهرت الجرذان في (وهران)[1] ، كأنها غزو مغولي ولا يصدق الحارس شيئاً ، فكم تبدو له الردهات هادئة ، طويلة ، نظيفة . ثم يفاجأ بموتاها تملأ الدرجات لقد كان الحكم سديداً ، وجُلب كل ما ينفع للقتال من صُلب ونار ، ووضعت خطط رائعة ، وقُلب كل ذلك العالم الذي كان موشكاً على النعاس .

ويُقبل الطاعون ، ويدلف للمدينة ، خفيفاً وبلا جلبة .. ثم تُعزل (وهران) ، وما تفيد العزلة ؟ انه موجود في (وهران) وفي غير (وهران) من المدن والقرى .. ألم تلفظهـا مجاري (نابولي) ؟ أما كانت هي التي التهمت مكتبـــتي (بغداد) و (الاسكندرية) ؟ .. أليست هي التي ظهرت في (يننا) و(اوسترلتز) و(قادش) و (ميسولونجي) ؟ ولكن الصراع لا يفتأ يستمر .. وتهيأ المصائد ، وتربى الهرر .. وتقتنى البنادق ويوجه الاطفال : هذه البراعم التي في قدرتها ان تغنّي الشعر ، وان تعزف الموسيقى ، وان تساهم في تفجير كل ضياء .. هذه البراعم تعد منذ الفتح ، كي تستقبل الحقد والاسى !

وقد جُند حتى اللصوص لمنع غزو الكوليرا ، والطاعون في نابولي و (وهران) .. ولكنه لا يجدي ، فهذا الغزو ابدي ، وهو يحضرنا كل لحظة ، فان ارضاً تخترقها المياه ، لا تعدم ان تنبت حتى العشب الضار .. بدون داع لوجود الانسان .

لقد ضمت الرواية المعاصرة كفها على الحشرة السامة ، وكشفت عن الموت الصميمي القابع في لب الحياة نفسها ، وهي لا تعرض لنا حلاً . فما من نهاية لكل بدء ، وبدؤنا كبشر بلا نهاية ، وهنا ، في هذه الارض الشريفة ، لا يتكرر منظر مرتين ، فقد كانت امم تغزو بعضها على ظهور الخيـل ، ثم اصبحت تتبادل الثقافات .. تمنح وتعطي .. وليس الانسان وحده من يملك ان يقتل ؛ واذا استجبنا لرغبة الطبيعة في ان تنتهي كل حياة بعد مائة عام ، فقد يعني هذا ان نموت حقيقة قبل مائة عام ، وما هو الانسان اذا بترنا عنه ارادة الصراع ؟

ألا يصبح كاهناً ؟ وما زال هنـــاك مئات من كهنة (الدالاي لاما) يبحثون ، وينقبون عن الحقيقة ، في جوف وديان لا قمم لها . هم اخيراً ، والصمت ..

ولا يستطيع الصمت ان يهب الحياة شيئاً .. وكما يمثل العمل حقيقة النمل ، والعبق حقيقة السوسن ، يمثل وعي المأساة حقيقة البشر ..

عالم خرب ، ولكنه مُعاش ، عالم جرذان ، ودود .. ولكنه ممتلىء رغبة ، زاخر بحرارة اللهاث امام الوعي المباشر ، ودفء الايدي ازاء ضخامة العمل ، ورسوخ المخ المصمم تجاه جسامة المسؤولية .. برغم حتمية الموت التي تؤلف نهاية المصير .

أنصارع الحياة نفسها ، ام نصارع انفسنا في الحيـاة ، ام نصارعها معاً ؟

ان الصراع موجود ، وهو لا يطلب الا مزيداً من وضوح البصيرة ، وحنيناً اقل .. وحرارة اكثر ..

كان الانسان حين يموت يطلب صارخاً ان يشهد الضياء ، وذلك التفتح الذي يأتي بعد الميعاد ، لم يكن مقبولا ، ولم يكن نفيساً ، كالتوبة الفارغة للص امام المشنقة ! وكانت بضع ذكريات كفيلة بان تعود به من سكون وحدته الجليلة ، الى ضجة علاقاته بالحياة والكون .

أخيراً .. ان الحياة متجددة دوماً .. واولئك الاطفال الذين لعبوا بالاسلحة قد ماتوا .. وامامنا اطفـال جدد .. ووعي جديد ...

.. الجرذان والصراع : ... وكانت الجرذان ، في البدء تلتهم كل شيء !

القاهرة — **محيي الدين محمد**

١ الطاعون : البيركامو .